النبوة عند الفارابي

الأستاذ عبد الوهاب فرحات

جامعة الأمير عبد القادر

تمهيد:

هو أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ من مدينة فاراب، وهي مدينة في إقليم خراسان التركي. قال عنه ابن سبعين المتصوف النقادة أنه: "أفهم فلاسفة الإسلام وأدراهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير ومات وهو مدرك ومحقق...وظهر عليه الحق بالقول والعمل"[1]

ويعد الفارابي الممثل البارز والفيلسوف الأول في الحضارة الإسلامية حتى اعتبره ماسينيون أنه :"أول مفكر مسلم كان فيلسوفا بكل ما للكلمة من معنى"[2].

وهكذا فإن الفارابي شخصية فريدة، وعقل نادر قل أن تجود بمثله الأيام لا في بيئات المسلمين فحسب، ولكن بين بيئات العالم – وهو في إخلاصه للحقيقة ليس له مثيل، وهو بذلك أنصع نموذج للباحث المتأله، الزاهد العابد الذي كرس حياته للبحث والتأمل والعبادة، إذ لم يعرف عن الرجل –كما أمدتنا كتب التراجم –أي انحراف سلوكي أو فكري بل قد أشارت إلى أنه صاحب نفس مؤمنة عميقة التدين شديدة الانجذاب لقضايا الألوهية ومسائل

1- عبد الحق بن سبعين، بد العارف، تح جورج كتورة، ط1-بيروت :دار الأندلس، ص143.

2- نقلا عن: أحمد خواجة، الله والإنسان في الفكر العربي الإسمي، ط.1، بيروت، منشورات عويدات 1983م ،ص28

الصفات والأسماء الحسنى وما كتابه الرد على "ابن الراوندي"[1] إلا برهان على غيرته الدينية وإخلاصه لها .

وما تلك المنازع الروحية، واللمحات الصوفية التي حفلت بها آثاره تلميحا وتصريحا إلا شهادة صدق على ما نقول، ولا شك أننا في أمس الحاجة للمزيد من الدراسات الناضجة التي تتعرض لهذا المنحى الصوفي عند فيلسوفنا وغيره من فلاسفة الإسلام.

نشأته وسيرته: لا تشير المراجع التي تؤرخ حياة الفارابي إلى تفصيلات وافية عن نشأته الأولى، ولا تلقي ضوءا ساطعا على نسبه وأسرته التي تربى في كنفها حتى أن معظم المراجع عرضت حياته الشخصية والفكرية ابتداء من قدومه بغداد وهذه مرحلة متأخرة في حياة الفارابي إذ يقدر مصطفى عبد الرازق دخوله إلى بغداد في حدود (٣١٠هـ) وهو على عمر يناهز الخمسين عاما تقريبا[2]، إذن فحياة الرجل الأولى لا تكاد تمدنا عنها الأخبار بشيء اللهم إلا ما ذكر أن أباه قائد جيش، وكذلك ما ذكر من اشتغاله بالقضاء في بلدته فنستنتج أن فيلسوفنا كان ملما بالثقافة الإسلامية من تفسير وفقه وأصول وغيرها من العلوم الآلية، ونحسب أن هذا التكوين بقي ملازما لشخصه وقد تجلى هذا في آثاره التي خلفها.

مترلته وفضله: اتفق المؤرخون الذين ترجموا للفارابي أن هذا الشيخ كان ذكيا بارعا في الحكمة القديمة والرياضيات والموسيقى واللغات والعلوم واكتسب الفارابي هذه الثقافة الموسوعية الشاملة تدريجيا حتى دعي بسببها "بالمعلم الثاني" على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول .

ولا يخفى على أحد الدور الكبير الذي قام به الفارابي في نهضة الفلسفة وإثراء الدراسات الفلسفية بالشرح والتفسير والتحليل والإضافة فقد كانت مساهماته بحق رائعة، ومؤلفاته

1- هو أحمد بن اسحاق الرواندي، يهودي الأصل مات في أخريات القرن الثالث، له آراء في النبوة لها خطرها من أهم تآليفه "الزمردة" في إنكار الرسل وإبطال رسالتهم .

2- مصطفى عبد الرازق، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، ط1، القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي 1945م، ص 59.

متنوعة، واهتماماته متعددة ولا غرو أن يصفه ابن خلكان بأنه " أكبر فلاسفة المسلمين، و لم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه. والرئيس أبو علي بن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه"[1].

والواقع أن "أوليري" أصاب كبد الحقيقة حينما قال إنه: "ليس من الصعب المبالغة في تقدير أهمية الفارابي، فالواقع أن كل ما نلقاه فيما بعد عند ابن سينا وابن رشد موجود في صلب تعاليم الفارابي"[2].

وإذا كان ابن سينا قد اعترف صراحة بتأثير الفارابي على أفكاره وإقراره له بالسبق والأولوية ودينه له بالخضوع والأستاذية[3] فإن الأثر الذي خلفه الفارابي على ابن رشد وبخاصة في كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة" يحتاج إلى وقفة بل وقفات، وسوف تتضح أهمية الفارابي أكثر إذا استطعنا إبراز أثره على تصوف "محي الدين بن عربي"، وعند شيخ الإسلام "ابن تيمية" عندما تحدث عن أدلة وجود الله. وهذا رأي لا نحسب أن أحدا قد تفطن إليه.

والفارابي أول من ألف في تصنيف العلوم وتقسيمها في الحضارة الإسلامية وذلك في كتابه "إحصاء العلوم"[4]. ولئن كانت الألسن تلهج باسم الفارابي منذ ألف عام فإن قمين بذلك بما وهب حياته لخدمة العلم والحكمة، وبما ترك من جلائل الأعمال ذودا عن العقيدة من جهة، وتمكينا للفكر الفلسفي في البيئة الإسلامية من جهة أخرى.

ظروف ومبررات النظرية: تعد نظرية الفارابي في النبوة من أهم الأفكار التي تركها الرجل بما أثارت من جدل ونقاش في البيئة الإسلامية فقد قبلها البعض ورفضها البعض الآخر .

1- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر 1977م، ج5، ص153.
2- أوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، تر: اسماعيل البيطار، ط،بيروت: دار الفكر البناني 1982م ص135.
3- د. ابراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ط2، القاهرة، سمير كو للطباعة والنشر [د.ت] ج1،ص45.
4- طبع هذا الكتاب وحقق من طرف الفيلسوف المصري الدكتور عثمان أمين.

والواقع أننا لا يمكن أن نفهم هذه النظرية حق الفهم، دون أن نضعها في الإطار التاريخي الذي ولدت فيه، والملابسات التي أحاطت بها. فلقد جاءت محاولة الفارابي في وقت تعرض فيه العالم الإسلامي إلى موجة من الشك والإنكار لبعض أسس الإسلام ومبادئه، ولقد تولى كبر هذه الهجمة بعض الزنادقة من أمثال "ابن الراوندي" و"ابن زكريا الرازي" الطبيب والفيلسوف المعروف.

فكان أن استنفر هذا الهجوم نفرا من علماء الكلام -وكان هذا هو الدور الطبيعي الناجح لعلم الكلام- ولقد أبلى المعتزلة بلاء حسنا في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، ودحض شبه الخصوم والملاحدة والزنادقة نخص منهم صاحب كتاب "الانتصار للرد على ابن الراوندي الملحد" ألا وهو "أبو الحسن علي الخياط".

ويهمنا في هذا الصدد أن نبين أن الفترة التي عاشها الفارابي وقبله بقليل كانت ميدانا فسيحا للمجادلات حول مصدري الإسلام ذاته وهما الوحي والنبوة، فكان لا بد للفارابي أن يتناول القضية من منظور عقلي صرف، يفضي إلى التسليم بها وتصديقها والأخذ عنها. هذا هو الإطار التاريخي للنظرية، وهو في رأينا المفتاح الذي يحل لنا كثيرا من الإشكالات التي أثيرت حولها، والتفسيرات التي فسرت بها والنتائج التي بنيت عليها، والتي لم يدر بخلد الفارابي منها شيء أبدا.

وتستند آراء المنكرين للنبوة في عمومها إلى ترديد آراء البراهمة والسمنية وخلاصة آرائهم اعتقاد بطلان الوحي والنبوة وعدم الحاجة إليهما، إذ أن الأنبياء إما أن يخاطبوننا بما نعقل فما وجه الحاجة إليهم وفي العقل كفاء وغناء، وإما أن يخاطبوننا بما لا نعقل، وبالتالي فهم مجانين وما داموا كذلك فيجب علينا عدم اتباعهم والإنصات إليهم.

تفسير الفارابي لظاهرة النبوة: وملخص هذه النظرية كما يصورها لنا الدكتور إبراهيم مدكور في كتابه القيم "في الفلسفة الإسلامية-منهج وتطبيقه" أن النوم هو ركود الإحساس

وأن الحلم صورة ناتجة عن المخيلة التي تعظم قوتها أثناء النوم اثر تخلصـــها مـــن اشـــتغالها بالمحسات حتى تصعد إلى سماء النور والمعرفة.

ومتى توفرت لشخص مخيلة ممتازة تمت له نبؤات في النهار مثل نبؤات الليل، وأمكنــه في حال اليقظة أن يتصل بالعقل الفعال مثل اتصاله به أثناء النوم بل ربما كان ذلك على شــكل أوضح وصورة أكمل[1].

وهذا يؤدي إلى اعتبار الأحلام نموذجا مصغرا والى حد ما لحالة النبوة وهذا ما يرشـــد إليه الدين نفسه–سواء الإسلام أو الأديان السابقة– بل قد شاعت ظــاهرة تعبــير الــرؤى وتفسير الأحلام بين شعوب العالم قاطبة و لم تختص بأمة من الأمم أو بجنس من الأجنـــاس، ولقد حدثنا القرآن الكريم عن مواقف إنسانية فرضتها أحلام، وتولى تأويلها خبراء بهذا الفن، وأشهر الأحلام المروية حلم العزيز الذي فسره له سيدنا يوسف و لم يعد أضغاث أحـــلام، وكذلك رؤيا سيدنا إبراهيم بذبح ابنه وأخذ إبراهيم –عليه السلام– بهذه الرؤيا واعتبرهـــا أمرا إلهيا.

ونجد في كتب الصحاح أمثلة لهذه الأحلام بل قـــد بـــدأ الإمـــام البخـــاري كتابـــه العظيم"الجامع الصحيح" بكتاب "بدء الوحي" حيث اعتبر هذا الإمام أن الرؤى التي رآهـــا رسول الله ﷺ ما هي إلا إرهاصات ممهدة لظهور نبوة محمدﷺ.

ولذا يعترف الشرع بأبسط صور الوحي التي يعتمد فيها على المنامات الصادقة والــرؤى الصالحة ولقد جاء في الحديث الشريف: "الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا مـــن النبوة"[2].

وبذا تتبين لنا الصلة بين الأحلام والرؤى والنبوة والوحي مع مراعاة الطبائع والأمزجـــة والظروف التي تحيط بالرائي طبعا .

1–إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية –منهج وتطبيقه، (مرجع سابق) ج1، ص95.
2– البخاري، الجامع الصحيح، باب التعبير .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الفارابي يرى أن الرؤى والأحلام وهي من آثار المخيلة يمكن أن تفسر لنا ظاهرة النبوة إلى أبعد حد.

والنبي عند الفارابي بشر منح مخيلة نفاذة تمكنه من الحصول على الإلهامات السماوية في مختلف الظروف والأوقات دون أن تستغرق مخيلته الحواس أو أعمال العقل، والأنبياء ليسوا وحدهم في هذا الميدان بل قد يشاركهم غيرهم من أرباب التأمل والنظر الفكري والتصفية، ولكن مع مراعاة الفروق الفردية بين مخيلات الأنبياء وبين غيرهم من البشر وهذا ما صرح به الفارابي نفسه يقول -رحمه الله -: "ودون الأنبياء من يرى بعض الصور الشريفة في يقظته وبعضها في نومه، ومن يتخيل في نفسه هذه الأشياء كلها ولكن لا يراها ببصره ودون هذا من يرى جميع هذا في نومه فقط وهؤلاء تكون أقاويلهم التي يعبرون بها أقاويل محاكية ورموزا وألغازا وابدالات وتشبيهات، ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتا كبيرا"[1].

ويبدوا أن الفارابي يقصر هنا طائفة الصوفية وكبار الأولياء الذين كثيرا ما يلجأون إلى لغة التلميح بدلا عن لغة التصريح.

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الفارابي يرى أن الاتصال بالعقل الفعال (مصدر الصور والمعارف والإلهامات) يتم بطريقين: طريق الأنبياء وطريق الفلاسفة وان شئنا الدقة أكثر طريق الأولياء والمتألهين .

وللحقيقة فإن الفارابي كان يرى أن للنبي طاقة أخرى أو قوة إلهية تمكنه من التقاط الوحي واستيعابه ولنتأمل ما يقوله في كتابه فصوص الحكم "النبوة هي الاتصال بقوة قدسية يذعن لها بالغريزة عالم الخلق الأكبر كما يذعن لروحك عالم الخلق الأصغر فيأتي النبي بمعجزات خارجة عن العادات ولا تأبى مرآته من الانتقاش بما في اللوح المحفوظ والكتاب الذي لا يبطل وذوات الملائكة التي هي الرسل[2].

1- الفارابي، المدينة الفاضلة، تح: السيد نصري نادر، بيروت: المطبعة الكاثولكية 1959م. ص94 .
2-الفارابي. عجائب الفصوص في تهذيب الفصوص، ط1، القاهرة: مطبعة السعادة 1935م، ص 81-82.

هذه هي نظرية الفارابي في النبوة، أقام دعائمها على أسس عقلية صرفة هدف من خلالها إثبات ظاهرة الوحي بعد أن ثبت الإيمان بها شرعا وبذا استطاع الفارابي أن يفل جموع المنكرين للنبوة وأن يزيف آرائهم ويقضي بذلك على فتنة أوشكت أن يعلو أوارها في البيئة الإسلامية .

نقد نظرية النبوة: الآن وقد لخصنا باختصار نظرية النبوة عند الفارابي يجدر بنا أن نيمم وجهنا شطر الانتقادات الكثيرة التي وجهت لهذه النظرية لعل أهمها:

١- إذا كان في مقدور بعض أصحاب الفطر الفائقة الاتصال بالعقل الفعال، فإن النبوة تغدو أمرا كسبيا وهذا يتناقض أساسا مع المبدأ الإسلامي القائل بأن النبوة محض اجتباء وبأنها "خصوصية من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي أمر بتبليغه أم لا، وهكذا الرسالة ولكن يشترط أن يؤمر بالتبليغ "[1].

الواقع أننا قد أشرنا قبل إلى أن الفارابي كان يعالج موضوع النبوة من موقف عقلي معتمدا على المبادئ النفسية البحتة، وكان غاية اهتمامه الانتصار لمبدأ النبوة من حيث هو، في وجه المعترضين عليها لا بالنسبة للمؤمنين الواثقين بكل ما ورد في القرآن وفي السنة الصحيحة بشأن الوحي.

وفي هذا الإطار وحده يمكن أن نفهم لماذا غض الفارابي عن النصوص الشرعية المتعلقة بنزول جبريل عليه السلام وغير ذلك من الآثار المتصلة بالوحي وكيفياته.

أضف إلى ذلك أن الفارابي لم ينكر شيئا مما ورد في الشرع من هذه النصوص والأخبار التي تتعلق بطرائق الوحي لا تلميحا ولا تصريحا.

1-البيجوري، شرح جوهرة التوحيد، ط الأزهر: الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية 1974م، ص157.

٢- تسوي هذه النظرية بين النبي والفيلسوف وربما فهم البعض تفضيل الثاني علـى الأول ذلك لأن الحقائق الدينية تأتي مصحوبة بضرب الأمثال والمخيلة أيضا تكون مشوبة بـالحس على حين أن الحقائق الفلسفية تأتي مجردة خالصة، وبما أن العقلي مقدم على الحسي فـهم يرون أن هذا هو لازم نظرية الفاراب .

والحقيقة أن هذا الاعتراض ليس وجيها إذ أنه من المقرر عند العلماء "أن لازم المذهـب ليس مذهبا لصاحبه" وبخاصة أن لدينا نصوص كثيرة يحتفظ فيها الفارابي للنبـوة بأشـرف المقامات وأعظمها. يقول الفارابي في كتابه فصوص الحكم: "النبوة هي الاتصال بقوة قدسية فيأتي النبي بمعجزات خارجة عن العادات ولا تأبى مرآته عن الانتقاش بما في اللوح المحفـوظ والكتاب الذي لا يبطل وذوات الملائكة التي هي الرسل"[1].

زد إلى ذلك إن الفيلسوف كما أشار الفارابي لا يستطيع أن يدرك حقائق الأشياء بل لا يعرف من الأشياء إلا ظواهرها وصفاتها يقول أبو نصر: "الوقوف على حقائق الأشياء ليس في قدرة البشر ونحن لا نعرف من الأشياء إلا الخواص واللوازم والأعـراض، ولا نعـرف الفصول المقومة لكل منها الدالة على حقيقته، بل إنها أشياء لها خواص وأعـراض، فإنـا لا نعرف حقيقة الأول ولا العقل ولا النفس ولا الفلك ولا النار ولا الهواء والمـاء والأرض ولا نعرف حقائق الأعراض"[2].

ويعلل الفارابي سبب موقفه هذا، ويرجعه إلى أن أصل معرفتنا بالأشياء يعود إلى الحـس والحس متغير فلذلك من المستحيل أن يزودنا بمعرفة يقينية وهو رأي يكاد يقترب مـن رأي الفيلسوف الألماني كانط (ت ١٨٠٤م) الذي رأى أن العلم محدود بالظواهر ولا يستطيع العقل إدراك حقيقة الشيء في ذاته[3].

1- الفارابي عجائب النصوص في تهذيب الفصوص (مرجع سابق)، ص81-82.
2 - الفارابي، التعليقات، ط1، صدر آباد الركن 1926م، ص4.
3 - نقلا عن جعفر آل ياسين فيلسوفان رائدان، ط1، بيروت، دار الأندلس 1980م ،ص83.

وإذا كان هذا رأي الفارابي في علوم ومعارف الفلاسفة فكيف يسوغ لنا أن نتهمه بأنــه يفضلهم على الأنبياء أو حتى يسوي بينهم.

هذه هي نظرية النبوة عند الفارابي وهي فيما قال الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور أهــم محاولة قام بها فلاسفة الإسلام للتوفيق بين الفلسفة والدين، والفارابي هو أول من ذهب إليها وفصل القول فيها، بحيث لم يدع فيها زيادة لخلفائه فلاسفة الإسلام الآخرين. وهذه النظرية هي أسمى جزء في مذهبه الفلسفي تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة وتتصـل اتصالا وثيقا بالسياسة والأخلاق"[1].

ومع تقديرنا للجهد الذي بذله فيلسوف الإسلام في تأسيس هــذه النظريــة وإنشــائها والدفاع عنها، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أننا نوافق الفارابي في كل ما ذهب إليه وإنمــا غرضنا تبيان الباعث والدافع الذي حفز الفارابي على معالجة هذه القضية على هذا النحو

والحقيقة أن النبوة تجربة شخصية شأنها شأن تجارب عديدة كتجربة الرياضة الصوفيــة والحب الإنساني وبالتالي لا يمكن التعبير عنها أو نقلها للغير وهذا محيي الدين ابــن العــربي الصوفي الشهير يتوقف عن الحديث عن مقام النبوة لأنه لا قدم للأولياء فيه حيــث يقــول: "وما توقفنا عن الكلام في مقام الرسول والنبي صاحب الشرع إلا لأن شرط أصل الطريــق فيما يخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق ولا ذوق لنا ولا لغيرنا، ولا لمـن ليس صاحب شريعة في نبوة التشريع ولا في الرسالة فكيف نتكلم في المقام لم نصــل إليــه وعلى حال لم نذقه لا أنا ولا غيري ممن ليس ذي شريعة من الله ولا رسول، حــرام علينــا الكلام فيه فما نتكلم إلا فيما لنا فيه ذوق فما عدا هذين المقامين فلنا كلام فيه عــن ذوق لأن الله ما حجره"[2].

1- إبراهيم مدكور في الفلسفة الإسلامية (مرجع سابق) ص70.
2-بن عربي، الفتوحات المكية، بيروت، دار صادر، [د.ت] ج2، ص24 ويمكن أن ينظر أيضـا ف. ج2، ص25 وف ج3، ص14.

وهذا أبو يزيد البسطامي سئل عن هذه المسألة فقال: "مثل ما حصل للأنبيـــاء عليـــهم السلام كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، ومـــا في الظرف مثل ما لنبينا محمدﷺ "[1].

وأخيرا وليس آخرا فإننا نختم هذه المحاولة المتواضعة بقولنا "أن خـــوض البحـــر شـــيء والوقوف على شاطئه ووصفه شيء آخر".

1-القشيري، الرسالة البيانية، تح: معروف زريق ،ط1، بيروت: المكتبة العصرية 2001م ،ص356.